الكتب

روض الشقيق فى الجَزْل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان

١٢٨٤ — ١٣٤٦ ﻫ

للأستاذ محمد بك كرد على

بيت الأمراء أرسلان فى لبنان عريق فى النسب والأدب ، وأشهرهم فى هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من انبغتهم الشام من أرباب الأقلام ، ويليه فى الشهرة الأدبية شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هـذا الديوان . طبعه فى دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضى ، وعلق عليـه حواشى وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التى تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة ١٣ ﻫ . وكان قد حضر وقعة أجنادين ، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح ، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة ٤٥ ﻫ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه ، وشهد وقعة قِنَّسرين . وأرومة هذا البيت ترتقى بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى . وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان ، وهو فى ٢٧٠ صفحة متوسطة القطع ، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والمدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب ، وردّ على بعض المؤرخين الذين أغفلوا لمقاصد حزبية ذكر آل أرسلان فى بعض المواضع والمواقع ، وقديماً قالوا : الناس مصدّقون بأنسابهم

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه بروض الشقيق ، فى الجَزْل الرقيق ، وذلك لجمعه بين متانة التركيب ، ورقة الشعور ؛ وفى لفظة الشقيق من التورية مالا يخفى . وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد ، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله : « لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً ، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نِداً ، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى الثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المافنة . فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت عليهم أجارعها ، وصارت مَلَكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليـه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريف البضائع ، وأن يضيفوا إلى الارث المُدملى Archaïque الكريم حديث البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية ، لأجل تمام القصد واجتناب الهجنة ، أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها .. »

وها كم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير فى ضنكه ويحث الموسر على إعانته ، « وهى قصيدة فذة فى بابها فى وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم » :

رأيت سليل الفقر يعمل فى الثرى   منكبّاً على عزاته يتلهف
يخدّ أديم الأرض خداً كأنه   له قِبَل الغبراء ثار مخاف
كأنى به نادته للحرب فاغتدى   يكرّ عليها بالحـديد ويعطف
كأنى به إذ فرق الترب والحصى   يفتش هل فى باطن الأرض منصف
كأنى به إذ خط فى الأرض قبره   يهمّ على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذى ليس ناهضاً   به بشر غض البنان مهفهف
جبين بعرفض الصبيب مضمّخ   وشعر بملتص الغبار مغلف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما   تبينت من أوداجه الهم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه   إذا قرّ منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت   أضالعه فى زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه   حسيس هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت   تصافح منه جلده حين تعصف

وأثبت حَشْىُ الشمس فى أم رأسه   نبالاً فراش العظم منها منقف
تبطن منثور الغبـار جفونه   فضرَّج منها مقلة تتحسف
كأن حماة الشوك فى ذيل برده   طراز حواه العبقرى المفوَّف
عدٌ إلى الجبار كفاً تكدحت   أناملها والله بالعبـد أرأف

ومنها :

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى   وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هى الفقر ما أدراك ما الفقر إنما   لهـات الردى منـه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى   فلا الرغد ميسور ولا العمر يترف
بكيتك يا خلوَ اليدين بأدمعى   فأنت صريع النائبات المذقف
روح كثير المال يسحب ذيله   وأنت المعنَّى يا فقير المـكلف
ألست الذى شاد الحصون بعزمه   وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر فى اللج ينثنى   ومشَّى قطار النار فى البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرة   وحاك لهم موشـــية تتنصف
بلى إنّ من هان العسير بكده   على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه   ولامسٌ كفيه القضيب المثقف
أفى الحق أن يشقى الفقير بعيشه   وذو المال فى شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه   غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما فى كبود العالمين هوادةٌ   ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة   يحثُّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق   ولو هزَّ فوديه النصيح المعنف
أراه إذا ما نعَّم الرغد جسمه   غدا قلبـه يقسو لديه ويصلف
إليكم بنى غبراءَ تدمى عيونهم   وليس لهم إلا المياسير مسعف
يمدون نحو المحسنين أكفهم   وما يستوى للـكفِّ والتكفف
سأات عزيز للمال حين يفوتهم   من الرمل تحثوأم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى إليهم فريضةٌ   وفى ذلك الآيات لا تتحرف
فإن طلبوا الانصاف قبل سماحة   ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف الضر عنهم فإنما   أخو الضر عسى ضارياً حين يجحف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى   فيبدو منهم بادر لا يكفكف
فإن لم ينالوا بالهوادة حقهم   ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه   فإن الخطاب العذب نعم المثقف
لكم عبرة فى الغرب من كل فتنة   تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب   لما قام منهم قائم متطرف

وفى الديوان كثائر الدواوين الشعرية أماديح وقصائد فى التهنئات ، ومقاطيع فى الغزل والنسيب ، وكلها من الشعر الجزل . رحم الله ناظم عقودها وأمد فى حياة ناشرها

إلى صديقى العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شق علىّ يا أخى أن تلق دلوك فى الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذى ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، فى فن لست منه ولا أنا فى العير ولا فى النفير ، وجئت تغالى بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والمتانة وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول فى هذه المآزق ، لأنك فى غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجا إلى مصانعة الناس ، ولا نعنبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ؛ وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك فى غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجرى إلا فيما يصلح أن ينسب إلى إحسانه ؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ؛ والأفراط فى التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبى فى العرب ؛ والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج فى زماننا . ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدلّ كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه فى البيان ، ولا يشول مهما نفخناه فى الميزان

وأكتفى الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمالَ والقسام فى العربى (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمى » الذى جاء اسما على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقى هو الجمال المعنوى ، لا الجمال الصورى ، الذى هو جمال زائل ؛ فالجمال المعنوى هو الذى ورد به الحديث الشريف : إن الله جميل ويحب الجمال . وعلى هذا يمكننى أن أقول إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوى الذى يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى ، الذى كان فى هذه الحقبة الأخيرة

جال دمشق ، وجال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الهبات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ؛ لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . . الخ)

بأبي أنت وأمي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا إليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا !

وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أعيت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من تقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من إجهاد الفكر ؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لها سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي إسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع ؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ؛ ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي تقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما أظنك تنكر عليّ أن وصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . وأظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخَرَة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجل من نشره في الأقطار ؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها ؛ والجواد عينه تُغني عن الفُرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ؛ كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يزن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرج أرجاؤه نداً ولطيماً ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ؛ ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، لما خفي أمره . . »

أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، وأجل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنُفهم ، لا لنُعجم ونُبهم . وبعد فما لنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المتكلف من أنواع البديع

محمد كرد علي